الفن المصري القديم

تتميز البيئة المصرية بشمسها الساطعة وسمائها الصافية، وذلك الوادي الأخضر المنبسط والذي يحده من الجانبين سلسلة من الهضاب التي ترتفع حينًا وتنخفض أحيانا بصخورها المختلفة، مما أبرز خصائص الطبيعة المصرية وحدد معالمها وأتاح للمصرين أن يعرفوا حساب السنين وأن يتألموا في دورة الشمس. وقد كان لهذه الطبيعة الواضحة المعالم، الأثر الأول في تكوين العقيدة المصرية القديمة، فقد استنبطوا نتيجة لدورة الشمس وتتابع الليل والنهار وتتابع الفصول أن الحياة ممتدة وأن الموت ظاهرة مؤقتة تنقل الناس من حياة الدنيا إلى حياة أخروية خالدة. وقد كان إعجاب الفنان المصري بالطبية وحبة لها، سواء أكان ذلك بالنسبة للنباتات البرية أو التي يزرعها، وللحيوانات والطير وكل ما تزخر به البيئة المصرية من مظاهر الحياة، مما دفعه إلى أن يتأملها وأن يعيش معها عيشة المحبة المتذوق لها، وقد كان من أثر ذلك أن ألهمته هذه الطبيعة كل أعماله الفنية، فلا نكاد نجد في انتاج المصري عبر التاريخ إلا ما تأثر به في الطبيعية المحلية تأثرًا عميقًا وما انعكس في نفسه منها من أحاسيس ومشاعر.

ولعل فهم هذه الحقيقة هو المفتاح الذي نفهم منه الفن المصري القديم وأن ندرك حقائقه وأهدافه ، لذلك كان أول ما اهتم به الفنان المصري هو إنشاء المقابر فكانت في المراحل المبكرة قبل العصور التاريخية

عبارة عن حفرة في الجبل يدفن فيها الميت، كما يدفن معه فيها ما يلزمه في حياته الأخروية.

وكانت الأواني الفخارية مزينة برسوم مختلفة توضح حب الفنان للطبيعة التي تحيط به وتعشقه لها، ولعل هذا الإنتاج المبكر يعتبر من أجمل ما خلفته لنا لعصور القديمة، وتتمثل هذه المرحلة خلفته لنا حضارة البداري ما قبل الأسر، ونما خيال الفنان وتطورت احتياجاته وبدأ يظهر أثر ذلك في إنشاء المصاطب (الأسرة الثالثة) كمقابر للدفن، وأصبحت هذه المصاطب أعمالا معمارية عظيمة، وبلغ عدد الحجرات في بعضها أربعين حجرة، ومن أمثلة هذه المصاطب مصطبة (تي) بسقارة، وقد استطاع الفنان المصري مستلهما حبه للطبيعة بما فيها من طير وحيوان أن يسجل على جدران هذه المصاطب صورة كاملة للحياة المصرية وللطبيعة التي يعيش فيها من نبات وأشجار الدوم والجميز والتوت وحيوانات الفلاح كالثور، وسجل الحيوانات البرية مثل (سيد قشطة) هذا إلى جانب ما سجله من مهن مختلفة كالصيد والزرع والري والحصد وعصر العنب.

كل ذلك بطريقة تدل على مدى ما وصل إليه هذا الفنان من إيمان بفنه وإخلاص له ودقة فائقة في الأداء مما يعتبر من المعجزات، وقد لون هذه النقوش بألوان مشرقة لم يلجأ فيها إلى حيل الظل والنور وإنما كانت ألوان صريحة مستمدة من أرضه ومن نباته، وتطور بناء المقابر إلى بناء الأهرام المدرجة ثم أهرامات الجيزة، وإلى جانبها المعابد الضخمة التي كان

أولها معبد هرم سقارة ومعبد الهرم الثاني، وقد بلغت المعابد أقصى عظمتها في الدولة الوسطى والدولة الحديثة، حيث بلغت القمة في اكتمالها المعماري وتحقيقها للغاية التي أنشئت من أجلها، وأصبح المعبد يشتمل على مجموعة من المباني يتقدمها طريق الكباش ثم صرح ضخم تتقدمه مسلتان وتمثالان للإله، ثم فناء سماوي تحيط به سقيفة محمولة على أعمدة هذا الفناء تسطع فيه الشمس ويشتد ضوءها ويتبع ذلك بهو الأعمدة، وهو بهو عظيم الارتفاع تصطف فيه الأعمدة الضخمة المستوحاة من أشكال النخيل الباسق والنباتات الجميلة كنبات البردي واللوتس وغير ذلك من النباتات التي كان يحبها المصريون وينتفعون بها في جميع ما يحتاجون إليه، ثم ينتهي هذا البناء بقدس الأقداس الذي يوضع فيه تمثال الإله المعبود، وكانت جميع جدران المعبد سواء من الخارج أو الداخل مزينة بالرسم التي تحكي قصة الحياة والمعارك التاريخية التي انتصر فيها شعب مصر على أعدائه، وكان طراز إنشاء هذه المعابد يجعل لها من الرهبة والعظمة ما يملأ القلوب خشوعًا، فإن الفارق الكبير بين ما يحس به الإنسان في الفناء السماوي المضيء يختلف اختلافا تاما عما يشعر به في بهو الأعمدة المظلم بأعمدته الضخمة التي تملأ القلوب روعة. وكان النحت الذي يوضع في مقدمة المعبد يعتبر جزءاً متممًا له بما يتصف به من صفات معمارية وهي خضوعه لأشكال كتلة الحجر ليكون خالدًا باقيًا على مر الزمن.

التصوير:

أثبت الفنان المصري القديم جدارته في التعبير عما يحيط به من مظاهر الحياة وموضوعاتها الكثيرة، التي عاش فيها وتأثر بها وأثر فيها ويبدو ذلك واضحًا مما سجله نحو هذه الموضوعات واللوحات على الصخور وعلى سطوح الأواني واللوحات التذكارية ... وانطلق الفنان يسجل صورًا متعددة لما أحبه وما عاش فيه من مظاهر بيئته. ففي الدولة القديمة نشاهد مثلا أصيلا ممتعا في لوحة "الأوزات الست" وهي تبحث عن غذائها وقد رسمها الفنان على سطح من الطين المحلى بالجص وبالرغم من أن أسلوب الفنان غلبت عليه المسحة الزخرفية، إلا أنه استطاع أن يبرز الخصائص الطبيعية المميزة لطيور الأوز فيما سجله من حركاتها وهي تميل برقابها يمنة ويسرة باحثة عن طعامها. وفي مقابر بني حسن من الدولة الوسطى نجد أمثلة فريدة أخرى من التصوير الجدري عبر فيها الفنان عن موضوعات من الحياة اليومية يتمثل فيها حبه للطبيعة وحرصه على تسجيل دقائقها وتفاصيلها وأمانته في هذا التسجيل. وفي مقابر دير المدينة بالأقصر في الدولة الحديثة يستمتع الإنسان بما يشاهده من أعمال التصوير التلقائي الجداري لموضوعات منبثقة من البيئة المصرية الصميمة حيث نجد مناظر الحقول وأشجار الدوم التي تنوء بحملها والفلاح الذي يرتوي من القناة في الظهيرة وأعمال الحقل والطير المستظل بفروع الأشجار وحفلات الصيد والطرب ومناظرها إلى آخر ذلك مما يعتبر سجلا

حافلا للحياة المصرية القديمة. والمتأمل لأرضية قصر أخناتون المحفوظة بالمتحف المصري بالقرب من ملوي، يرى كيف عبر الفنان عن جماعات البط وهي تطير ناشرة أجنحتها فوق شجيرات البردي في بركة قصر فرعون، كما يلمح الأسماك ذات الأشكال وهي تنساب في الماء – ومما يجدر بالذكر أن عصر أخناتون شهد توجها نحو التعبير عن الطبيعة، وقد عثر على بعض الكروكيات في حي الفنانين في مدينة (خيتاتون).

النحت:

يعتبر النحت المصري جزءا متممًا للعمارة في المقابر، وقد سبق أن وضحنا ما تشتمل عليه المعابد من تماثيل في مداخلها تؤكد الوحدة بين العمارة والنحت، وكذلك كان الآجر في المقابر، وأغلب ما خلفه لنا الفنان المصري القديم من أعمال النحت يؤكد أصالته وقدرته على إبراز مقومات وخصائص ومميزات الشخصيات التي خلدها في تماثيله وسما بهذا إلى تأكيد القيم الإنسانية الكلية كالخلود والتسامي، ولم يلجأ إلى الفردية البحتة كالفن الاغريقي، ومن أمثلة ذلك: تمثال "خفرع" الموجود بالمتحف المصري الكبير ، والذي صنعه الفنان من أصلد أنواع الأحجار (حجر الديوريت الأخضر) واستطاع الفنان أن يحتفظ بخصائص كتلة الحجر التي انعكست على التكوين الفني للتمثال– الذي يتميز بتصميم فريد اكتملت فيه القيم التشكيلية في الكتل والسطوح التي تصل بين رأس اللك والصقر الناشر جناحيه خلفها ثم

الاكتاف العارية، ثم امتداد الساقين وكيف تتكامل العلاقات الفنية بين السطوح الناعمة والخطوط الإنسيابية المحسوسة وما أنشأه الفنان من زخارف بارزة على الكرسي الذي يجلس عليه الملك.

ومثل ثان، تمثال "شيخ البلد" المصنوع من خشب الجميز والذي نحس فيه معنى الخلود في نظرته الثابتة الممتدة نحو الأفق البعيد، وكيف أحال الفنان كتلة الخشب إلى هذه الضرورة الإنسانية المكتملة المعاني، كما يبدو في وقفته الثابتة والثقة والأمل.

ومثل ثالث، تمثالا نفرت ورع حتب الموجدان بالمتحف المصري واللذان صنعهما الفنان من الحجر الجيري الملون، ومع أن الفنان المصري القديم قد احتفظ بجميع مقومات العمل الفني الممتاز من تكوين متماسك إلى علاقات في الخطوط والكتل والمساحات، إلا أنه استطاع أن يحقق في هذين التمثالين صفة أخرى تعتمد على إبراز معاني الرقة والجمال والنعومة مع جلال الشخصية. وقد استطاع أيضًا أن يبرز في الحجر رقة الثوب الذي يبرز محاسن الجسم وجماله.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لما بلغه الفنان المصري القديم ومن أمجاد حققها في فن النحت، وقد شمل هذا الإنتاج كل ما تتصوره من مجالات أخرى سواء أكان ذلك بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو الطير، مستعملا في ذلك العديد من الخامات كالحجر بأنواعه، والذهب والبرونز والنحاس والخشب. إلخ. كما لجأ الفنان إلى استعمال الألوان

المختلفة في الكثير من أعمال النحت والحفر لتأكيد التعبير الذي يريد أن يحققه. والمتحف المصري يزخر بأمثلة لا حصر لها تمثل تطور فنون النحت والحفر ابتداء من العصر المبكر حتى العصر المتأخر.

الزخرفة:

الفنان المصري مزخرف ممتاز بطبعه، وقد سبق أن أوضحنا مدى حبه لبيئته التي استلهم منها عناصر وحداته الزخرفية كزهرة اللوتس ونبات البردي وأوراق النبات وسوقها عناقيد العنب وقرص الشمس المجنح، وغير ذلك من العناصر التي انبثقت من الطبيعة المصرية الأصلية، كما صاغ هذه العناصر والوحدات بعد أن بسطها محتفظا بخصائصها مع ما يناسبها من أشكال هندسية متكاملة معها.

واستخدم الفنان في ذلك ألوانًا طبيعية كالأحمر والأصفر والأخضر والأزرق مع بعض اللمسات السوداء والبنية – وتتميز خطوطه فيما أنشأه من زخارف بالأناقة والرقة والاحتفاظ بخصائص الأشكال التي رسمها.

الفنون التطبيقية:

المتأمل لما خلفه لنا التراث المصري القديم من أعمال فنية تطبيقية كملت صفاتها الفنية في الأثاث والاواني والنسيج والحلي والتطعيم والخزف وآلات الطرب ونماذج السفن الخ ، ليحس فيها أنها قامت

على تصميم لم ينفصل من الوجود الطبيعي للأشياء وجمال النسب ووضوح القيم الابتكارية مع دقة فائقة في الأداء حتى لتبدو بعض هذه الاعمال وكأنها معجزة من معجزات الفن التطبيقي.

ومثال ذلك الأسرة المذهبة والمطعمة والكراسي التي صنعت أطرافها ومساندها على أشكال رؤوس الحيوانات القوية المتحفزة ، والتي زين بعضها برسوم رمزية جميلة ومن أمثلة ذلك أيضًا الأواني المرمرة الشفافة البالغة الحد في دقتها ورقتها والتي صممت على أشكال النباتات في أكمل تكوينها، وكذلك الأواني التي صممت أغطيتها على أشكال رؤوس الحيوانات. أما الحلي كالقلائد والأقراط والخواتم. والأساور... وغيرها فقد بلغ فيها الفنان الذروة في التصميم المنبثق من الشخصية المصرية وحقق فيه الدقة والاكتمال في فن الصياغة والتنزيل بالأحجار الكريمة التي أجاد الفنان المصري القديم تشكيلها وصقلها مستخدما في ذلك مختلف المعادن النفيسة– ومن أمثلة ذلك القلائد التي خلفها فنان الدولة الوسطى حيث صممت على شكل الصرح (البيلون)، بأشكال الحيوانات المركبة، والاشكال الآدمية مستعملا الرمز في هذا التكوين الفني.